قصة قصيرة

من تحبك وتمقتك

بقلم: محمد زيتون
المغرب

انخرطت في صباح الجيران.. مبتسمة.. جائعة.. سقطت بكل ثقلها على صحن الأرز ، ثم تلته دون بقية النسوة بآخر من عجين ، أما ابنها الصغير فيصارع بريق التحدي.. معمعة العيد.. يفاخر أبناء الجيران. ويعود متسرعا إلى جموع النسوة متسائلا مع نفسه عن أشياء كثيرة.. لينخرط في صحن العجين محاربا لهب الجوع... لا شك أن بعض الاستغراب قد ساور النسوة من صنيعها ، ولا بد أنها قد أحست به من خلال عيونهن المرتدة. وإلا فلماذا تنهض مستأذنة بعد أن رحل الرجال إلى المصلى؟! أحشمة منهم لم ترحل - وهم كثير إلا بعد ما رحلوا؟

لا شك أنها لم تتناول عشاء البارحة.. ولا فطور اليوم ، إلا في دور الجيران ومما لا شك فيه أنها بدون أضحية العيد ، وأنها كدور الأيتام محرومة من أشياء كثيرة...

- أمي رأيت عند... خرافا كثيرة يقول أبناء الجيران إنهم سيذبحونها اليوم...

-...

أمي... أبناء الجيران يلبسون ثيابا نظيفة جديدة جميلة...

- حتى أنت يا حبيبي ستلبسها.

- متى...؟

- لما يعود أبوك.

- أبي غاب طويلا هو لن يعود. أليس كذلك؟

- من قال لك؟

- هو لن يعود.

- لا سيعود وهو من سيحضر لك ثيابا جميلة...

- ومحفظة ودفاتر وكتبا كثيرة كما قلت لي..

- نعم.. وستذهب للمدرسة ككل الأبناء.

- أمي.. سيذبح الملك خروفا في التلفزة.

- من قال لك؟

- وبقرون طويلة أليس كذلك؟

- ربما...

- وسيذبح حتى عمي.. وعمتي... أليس كذلك؟

-...

أمي لماذا يذبحون ونحن...؟

-...

- أمي لماذا هذا «العيد الكبير »؟

- لأنه عيد الله أكبر - تجيب بضراعة -

- والملابس الجميلة والأكل..؟

- نعم.

- ولكن أبي لم يعد حتى الآن... سيفوت العيد وأبي لم يعد؟

- لا يا بني سيأتي.. سيعود.. وذلك هو يوم العيد الأكبر...

ترتخي تحت عباءة من الصوف بكامل جسدها المحموم بعد أن أوصدت الباب.. متماوتة من جراء وابل الأسئلة.. ومواجع أخرى كثيرة ، وقبالتها في البيت «العلبة» يلهو بأريكة صغيرها ، ويتشاغل عن الأريكة بالكلام... تفكر.. تقلب ما تأجج في رأسها. لا شك أنها بللت الأريكة بدموعها ليلة البارحة خاصة عند تذكر حديثه لها :

- فاطمة... اسمحي لي.. ظلمتك !!

- لا.. لا.. عد لي فقط.. ما زلت.. سأنتظرك...

- العيد آت وأنت تندبين؟

- من أجلك.. من أجل ابننا وعشنا.. فقط ، ارتح بالا واصطبر على هذه السويعات الباقية لك في هذا الطوق....

- أخطأت العد ما زالت خمسة عشر شهرا من سنتي السجن

- لم يبق شيء.

- أخطأت العد.

- لم يبق شيء... لم يبق غد.

- لا تقل هذا.. الغد بيد الله.

-....

- لا تقل هذا !!!

يصبح ممتطيا توبة جنون :

- ليس هناك من منطق يفرض شيئا غير هذا لن أعود لعشك ثانية يا بنت الناس... لا تترفعي وسط هذه القذارة البشرية.. اسلكي نهج السالكين لا مثل ولا قيم في هذا الزمن الـ.... كفانا ضحكا ووهما...

- ماذا تقول؟ أجننت؟ أين رجولتك؟...

خفق قلبها فارتعدت مفاصلها :

- بل أين رجولتك.. لقد رحل الرجال... فلا تسأليني بعد اليوم رجولة من أصلها... لم يعد إلي الكلاب... ولم يبق إلا أن التحق بهم...

في هستيريا ترد :

- وتفضل أن تصير كلبا؟؟!!

- لأعيش وسط الكلاب... وورقة طلاقك ستصلك ، وابحثي لك عن...

- وابنك؟

- اطرحيه غيابات الجب.. دور الخيريات وما أكثرها !؟؟

- ماذا تقول؟؟؟... ابني؟ دور الضياع؟ أنت؟؟ أنت من يقول هذا... أنت من يأمرني أن أبحث لي...

- نعم في ذراع غيري...

- تفو... تفو... كلب.. كلب..

هرعت باكية مرتقبة الدرج بعد أن شكلت عبراتها بركة ساخنة تحت القضبان... وأنفاسها تتراقص على وزن «كلب».. «كلب» لقد أحرقها.. قتلها ، بعثرها بعد أن قصها من الجذور. لكنها ما لبثت أن تنهدت بعبارات العطف مستدركة : ولكن رغما عنه ، كان يتكلم ، كان ينطق أحرفا من جنون..مسحوقا ، ممقوتا ممزقا.. كان يئن ، من قال إنه كان يتكلم ؟؟؟ لم يكن فمه إلا جرحا في وجهه.. وفرائصه تتصبب دموعا.. عرقا.. حمرة وسوادا... إنها نهاية العالم.. الطلاق.. الطلاق... أكان مجنونا حين خسف بها الأرض؟ أعصف بدماغه السوط فأرداه سديما وهاهو ابنه يكمل الباقي إنه لا شك من مرارة الظلم الذي يمزقه كان يتكلم.

تتلفت جهة اليمين.. تتسلق الجدار عيناها الحمراوان تتأملان.. تدققان النظر في ثنايا وجه طافح بالمروءة.. تعالجان الإطار الحديدي : يا له من أسر قاتل !!

- أمي.. إني أشم رائحة الدخان؟

-...

- رائحة اللحم المشوي؟؟؟

-...

ماذا يشوون يا أمي؟؟

- قلب أمك يا بني.

- ماذا؟

-....

- أقلت شيئا ما؟

- كم أعطاك عمي محفوظ وخالتي الحاجة سميرة و... هاتي لي أعد لك.

- أعطاني عمي محفوظ وعمتي الحاجة سمير هذا... وهذا...

- أتعرف ما سنشتري بهذه «الدراهم»؟

- ماذا؟؟؟

- اقترح أنت، ماذا تختار؟

- أريد أن أشتري سروالا ، دفاتر ، كتبا ، خروفا... لأضاهي أبناء الجيران.

- اختر واحدة.. واحدة فقط تكون جميلة وتغلب بها أبناء الجيران.

- واحدة.. آه.. واحدة.. آه خروف.. خروفا يا أمي.. خروفا كبيرا جدا جدا.. وله قرون بهذا القد.. - ويشير بكلتا يديه -

- نعم.. بدراهمك.. وبدراهم عندي.. سنجمع وندخر لنشتري خروفا سمينا ، كبيرا بقرون...

- كخروف الملك يا أمي، أليس كذلك؟ لقد رأيته في التلفاز عند عمتي سميرة.

- نعم.

- أمي لماذا تبكين؟ من أزعجك؟

وبعد شهور من يوم العيد «الكبير» كتبت بعد البسملة رسالة قصدت بها السجن المدني.

" إلى المشرذم من خلف القضبان :

انتظرت طويلا أيها الأحمق علك تكون عند رغبتك البلهاء.. وتبعث لي ورقة الشقاق الأخير. لأعيش أنا وابني بما ييسر ربي... دونك. بعيدا عنك وعن دنسك الذي لوثت به شرفي وكرامتي.. وحاشا لله أن أتنازل عنهما وعن ابني ولو استدعى الأمر حياتي... فهل شككت في؟ إن كنت كذلك فاشرب البحر..

الآن بما تبرع عليّ به الجيران من لحم بمناسبة العيد بعد أن علموا أني محرومة من كثير. فقد عملت على بيعه في بوابة السوق المحاذية للمحطة.. وأنا في حاجة إلى من يساعدني في شركتي هذه.. خاصة وأن العطلة الصيفية قد أشرفت على النهاية... هل تبت... أم ليس بعد؟؟؟".

إمضاء: من تحبك وتمقتك. ■